المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد التاسع - العدد الأول - ١٤٠٠ - ١٩٨٠

1

WWW.ATTAWEEL.COM

أسماء الكتب المحمدة

النقد عند الرافعي
مفهومه وفلسفته

بقلم الدكتور
مصطفى نعمان البدري
سامراء ـ الجمهورية العراقية

كان الرافعي الاديب الامام من ابرز شخصيات العصر الحديث في ميدان الكتابة والنقد ، فساق معاصريه شهرة وقوة عارضة بلا مراء ، ومنذ اتخذ النقد للتقويم ، وسلكه سبيلا مجاهدا في مقاومة قومية بالفكر العربي وصفته العلمية التجريبية ، وقد استطاع الاستطالة به على سائر المذاهب والاتجاهات ، يدل عليها بما لم يستطع مثاله سواه .

كما ثبت امام زيوف الحياة الادبية ببالة نادرة ، وتالق في افكاره النقدية وقوامها العربي ، الى الدرجة التي جعلت متاوئيه يدينون له بالراي والالمعية ، واصابته الحقائق العلمية ، والنظرات الهادفة ، بما لا يقل عن افكار جهابذة النقد في اوربة(١) ان لم يفقهم في اشياء هي من خصائص النفس العربية وميزات لسانها على سائر اللغات.

بوادره الاول :

لقد كان للرافعي في منطلقه الاديب حياة من الاخذ والتوفر والاستيعاب مع ارادة التغيير التي تستبد بالتكوين العقلي ، فتنمو مع الانسان في افكاره حتى تثمر فيها وتغنى .

ومن هنا كان لثقافته وسعة اطلاعه المعين الذي يغذي فيه تلك الارادة ، وينمي ملكة الاخذ والنقد ، ويتمهد ما انفرد فيه من التوجيه والدعوة والامتياز بهما .

وفي لفته الانظار اليه شاعرا ، وتعريضه ادبه للنقد مبكرا ، وانعطافته الدراسية لتاريخ آداب العرب ، والموازنة بين المواصفات العلمية(٢) وما القى في روعه من الاقبال والتوفيق فيما هو ماض فيه . . . ان كتب على نفسه الاطلاع على آداب العصر في جوانبها جميعا ، والالمام بغفوتها : تلك التي تمتح من معين التراث القديم ، والاخرى التي تلقف عن آداب الامم ، فتحاول حياة لها من الحياة الادبية ، واراد ان يكون له بين هذه وتلك مكان الانفراد بالدعوة ، فلم يترك صفحة للاقدمين فيها نوع نقد الا اطلع عليها وعرفها ، وقوم احكامها ، فقرأ كتب التراجم والطبقات وجمع اليه الكتب الخاصة ، كنقد مهلهل بن يموت لابي نواس واحمد بن طاهر وابن عمار في نقد ابي تمام وبشر بن تميم في البحتري والآمدي في الموازنة ، والحاتمي في رسالته ، والجرجاني في وساطته(٣) وكذلك كتب المتاخرين حتى « الوسيلة الادبية » للسيد المرصفي .

كما فقه مذاهب النقد المعاصرة : مما ترجم منها في الصحف السيارة ، او صدر في محاضرات

---

(١) محمود ابراهيم ـ نهضة الادب العربي الحديث ـ ١٢٩، ويرى الاستاذ محمد بهجة الاثري ان هذا التشبيه بخص للرافعي الناقد ، لان سبيله التي امتاز بها هي سبيل المجاهدة والدعوة، وليس هؤلاء النقاد والاوربيون كذلك

(٢) راجع الفصل الثاني من (تاريخ آداب العرب) خاصة

(٣) عمر الدسوقي ـ مع الرافعي ـ ٢١ (مجلة كلية العلوم ١٩٦٨) .

ورسائل ، أو استطاع فهمه في الفرنسية ومعلمتها خاصة(٤) ، فهو لم يفته فيها مذهب ، ولم يلتبس عليه مصطلح ، وان سخر من بعضها احيانا(٥) واشاح بوجهه عن بعض تحليلاتها .

وحينما مارس النقد جال في جوانب ثلاثة :

الاول منها استجلاء ما كان للعرب من اثر امام التراث الانساني في الموضوع ، وتحريه بتخطيط خاص(٦) وفيه يرجع بحاسة عجيبة الى مدارك ومراجع قل ان يتوفر عليها غيره ممن اوتوا نصيبا من الوقت والدراسة والشهادات(٧) .

والثاني : يرافق فيه مذاهب المحدثين ، بما فيها المترجمات الماثلة ، فيناقش الموضوع ويقلب جوانبه وربما رد الترجمة ، ووصل حقيقة ارادها الكاتب الناقد ولم يتوفر على فهمها المترجم(٨) .

والثالث ملاحقته الاحكام النقدية بما امتاز به من التوليد والابتكار ، والتفتيق الذهني ومن معنى يلد معنى ، ومن فكرة تنسخ اخرى ، الى راي جديد وملاحظة واردة ، يدل بها على آثار الاقدمين وبيانات المعاصرين ، فيكشف عن آفاق اخرى فيها اصاباتها ، وفيها خلطها واخطاؤها .

على ان مذهب الرافعي في النقد لا يمكن عده قديما ، او فقهيا حسب ، بتناول اللفظة والعبارة والحسن والتوفيق فيهما ، والاستجادة في البيت والتركيب ـ كما ذهب اليه بعضهم(٩) كما لا يجوز الحاقه بالناثر بمذاهب النقد عند الاوربيين(١٠) فهو في نفسه مذهب قائم بذاته ، له اصوله ومساربه ، يأخذ عنه ، ويقتدي به كل موفق ذواقة(١١) .

لقد راى الرافعي في مطلع حياته ان المعرفة « اصبحت بجميع طبقاتها في احرف الاسماء ، فان قيل كتاب لفلان ، قلنا : اين يباع ؟ وان كان من سقف المناع »(١٢) فهو يقرر حقيقة ما تبرح ماثلة للاذهان ، حتى ايامنا هذه ، فيثور عليها ، يريد تغييرها بمعيار عامي جديد .

ويجمع راي النقاد العرب في مثل قوله : « كان يقال ـ قبل ان تبلى عظام الادباء ـ مكرس الشعر القلب ، وزاده الفكر ، وقيمه العقل ، وزهره الاعراب ، وثمرة الصواب ، وجانبه اللسان ، فانت ترى ان ما يشترط لكمال الشاعر : ان يكون ذا قلب قد وسع منه الاختبار ، فتقلبت فيه المعاني من كل طائفة ، وفكر قادر بما اكتسبه من القوة ان يكون ما شاء من المعاني على التجلي فياخذ منها ويدع ، .. ومع ذلك عقل ينعهد الفكر فيسقيه ، والقلب فيزيد فيه ، . . فاذا ما جرى الكلام على اعرابه في لغته ، ووقف من غايته عند الصواب ، تناول اللسان باسلته ، ومر به فكان شعرا »(١٣) .

ثم يقرر : « .. ولذلك لا يكون من الشعر ما اذا نطقت به لا تشعر بقلبك يهتز ، وفكرك يتحرك ، وعقلك يتنبه . ولسانك يترنم برنين معانيه ، كانه جرس يدق » .

وعلى ذلك فهو حين يوزع « شعراء العصر » في درجات ، ويجعل لرايه وذوقه دالة الحكم في حيثياته انما يعني ما يقول ، ويصيب الهدف فيما يتوخى ، ويحدد الغاية فيما يرمي اليه من دعوة تجديدية ذات عطاء . . . الا ترى كيف اثار زوبعة كبرى من الردود والمناقشات ونقائض الاحكام التي دارت في صحافة ذلك العهد ما يزيد على العام(١٤) .

النقد عنده :

ويحدثنا الرافعي نفسه في صفة الناقد ـ اذ يقول وقد هول على الشاعر محمود سامي البارودي : « هو الكاتب ، وهو شاعر ، والاديب وهو فيلسوف والمصلح ، وهو موفق » حتى تساءل البارودي : اين هذا كله ؟ !(١٥) .

ذلك انه يوم ابتغى « الناقد الذي استعرض علم العربية وادابها ، وكان شاعرا كاتبا ، قوي العارضة ، رقيق الحس ، ثاقب الذهن ، مستوي الراي ، بصيرا بمذاهب الادب ، متمكنا من فلسفة النقد ، مبرزا في ذلك كله » ، . . لم يجده ، وانما

---

(٤) الهلال ـ يناير / كانون الثاني ١٩٢٧م .
(٥) المقتطف ـ يناير / كانون الثاني ١٩٢٣م .
(٦) كثيرا ما كان يمنهج لما يكتب وبين يدي بعض هذه المناهج
(٧) كاساتذة الجامعات .
(٨) كما هي حاله مع العقاد ـ انظر السفود ـ ٤٩، ٧٨ مثلا
(٩) مصطفى عبداللطيف السحرتي ـ الشعر المعاصر في ضوء النقد الحديث ـ ١٦٧ .
(١٠) عزالدين الامين ـ نشاة النقد ـ ١٢٤
عبدالحي دياب ـ التراث النقدي المعاصر ـ ٧٥
عن يوسف حنا الضياء ـ مايو ١٩٢١ .
(١١) اسماعيل صبري ـ الثريا ـ ١٩٠٦ ، وحي القلم ج ٢ ـ ٢٧٨ .

(١٢) ، (١٣) الثريا ـ كانون الثاني / يناير ١٩٠٥م .
(١٤) راجع : الثريا ومركيس والظاهر والمجلة وغيرها لذلك العهد ولاحظ اقلام المتفلوطي والمطران وحافظ وامام العبد وسواهم .
(١٥) وحي القلم ٢ ـ ٢٧٩ .

وجد النقد وقد توزعه صديق هو الصديق ؛ وعدو هو العدو ، وآخر ثالث لا تتعادل وسائل النقد فيه ؛ فلا خير في كلامه »(١٦) .

لقد تابع اولئك النقاد الادباء من شيوخ العصر وشبانه مذ يوم كان يرسل الشعر فيه ، وناله من بعضهم النقد الموجع والمؤذي احيانا ؛ وكانت لهجتهم غير متزنة في الحكم عليه(١٧) وناظر بعضهم مشافهة واصاب منهم ما اصاب ؛ وتوسم في الجامعة واساتيذها علما فيه ؛ او فنا في مجالاته ؛ ورأى المترجمات ؛ وحاول القراءة بالفرنسية في «معلمتها» خاصة ، وفي بعض صفحات آدابها ؛ . . ولكنه ما كان يزيد علما ، او يقف على معرفة جديدة ؛ او يستند الى راي وحقيقة حتى تبدو مهمة الناقد عنده اكبر عظمة ؛ وادق هدفا ؛ وارفع امتيازا .

وكان في ممارسته النقدية الاولى ان وضع نفسه بحيث « اصبح كل شاعر يريد ان يعرف رأيه فيه »(١٨) فكأنما كان ذلك يكلفه فوق ما يطيق من سعة الاطلاع والحصانة لكي يحفظ توازنه في رأيه وحكمه ؛ ولا ادل على رضا داود عمون عليه مثلا ؛ وانبساطه من حكمه(١٩) واستعمال احمد الكاشف لعبارته في صدر ديوانه الثاني(٢٠) .

ومن هنا كان عبء النقد عليه ثقيلا ، ومهمته اكبر مما هي عليه عند من مارسوه من معاصريه ؛ فقد اتخذه وسيلة شريفة للتدريب والتهذيب وللرفعة والبيان ؛ وللنهضة بالامة في خير صفوفها من الادباء والشعراء ، وتلك هي الحاسة التعليمية الراعية فيه .

يوم اوشك ان يكون احد كتاب « الجريدة » التي انشأها احمد لطفي السيد كتب في صفحة الآداب فيها يقول : « ان الامة تترقى باداب لغتها ؛ لان رقة الشعور التي يأتي بها الادب سببا للتأثر ، وهو طريق الفكر الاصلاحي في مادة المؤثر ، ومن وراء هذا الفكر يكون التدبير الذي هو اول اسباب الاصلاح»(٢١) .

ومن هنا كان النقد عنده وسيلة تشرف فيها الغايات ؛ وتتمالى الاهداف ؛ ويشرق العلم بالعرفان ؛ وتعود الحقيقة آية يتجلى فيها السمو بالحياة فكرة ومنهاجا ؛ . حتى اذا اتى بلغته على المجاز ـ كما هي الحال في معظم تعريفاته وتشبيهاته ـ ظهر على حقيقته العربية الصريحة ؛ ذا عطاء ممتد في الدعوة متوفرا على الاسباب منها ودواعيها . فقد جعل البحتري(٢٢) بالنقد احد وسائل الاديب في اللغة العربية ، الذي يحيط بفصيح اللغة ، ويتمكن من استعمالاتها ويجد النظر في البلاغة .

وكذلك عد اهل النقد ؛ والجرح والتعديل طبقة فوق الرواة والحفاظ(٢٣) واشار الى مبحث التنظير والموازنة(٢٤) الذي هو اقرب الموضوعات الى النقد وتطبيقاته .

وقد ظهر في نقده الواضح حين ادرك المتأخرين من نمط تاليفهم ؛ وكيف يجيؤون بالعلم والرم(٢٥) وكيف استشفه ذلك النوع من التاليف الذي يسميه الظرفاء من اهل الصحافة « التحرير بالقص »(٢٦)

على انه كان كثير المناقشة في موضوعات النقد مع ادباء جيله ؛ يظهر عليهم في كثير من المفهومات التي يصدرون فيها بآراء ووجهات نظر(٢٧) ؛ يعرف ذلك من رآه يختلف على الشيخ محمد رشيد رضا الحسيني في « المنار » ، او يلقى الدكتور يعقوب صروف في « المقتطف » ؛ او يناقش لطفي السيد في « الجريدة » او يجيب اصحاب « الهلال » على اسئلتهم التي لا تنتهي ، او يشهد ندي "مي" او يزور شيخ العروبة احمد زكي باشا ، او يجول بحوار مع الاستاذ محب الدين الخطيب في مكتبته «السلفية» حيث تنشر «الزهراء» وتكتب «الفتح» او يتطارح مع الفضلاء في رسائل ومناظرات(٢٨) .

ولكنه كان يضيق بالمكابرة في الراي ؛ والعناد ، والاصرار على وجهات النظر التي لا تبلغ ان تكون افكارا ؛ او الظهور بمدعيات مالها نصيب من الفهم او اثر العلم ؛ وانما هي الى اللجاجة اقرب ؛ وبالخصومة الصق ؛ فقد يغلب مناظره ويوقعه على الخطأ او التطفل(٢٩) ولكنه لا يرضى له ان يعود لما نهي عنه مكابرة ، من غير اعتداد براي جديد .

ومن هنا لفت الانظار الى هذه الناحية الخطيرة

---

(١٦) وحي القلم ٣ ـ ٢٧٩ .
(١٧) كمصطفى المدرس وحسن السقطي وادوارد مرقص وغيرهم وقد ترد الاشارة اليهم في فصل آخر .
(١٨) ، (١٩) وحي القلم ج ٣ ـ ٢٤٢ .
(٢٠) انظر ديوان الكاشف ج ٢ ـ ٧ .
(٢١) الجريدة ـ ٧ / ١٩٠٧م .
(٢٢) الجريدة ـ ٩ / ١٩٠٧م .
(٢٣) الجريدة ـ ١ ـ ١٩٠٨م / المعركة ٧٥ .
(٢٤) الجريدة ـ ١ ـ ١٩٠٨م / المعركة ـ ٧٧ .
(٢٥) مالا يريدون به غير الكثرة .
(٢٦) الجريدة ٢ ـ ١٩٠٨م المعركة ـ ٧٨ .
(٢٧) وحي القلم ـ ٣ / ٣٨٧ ، ٤٥٥ .
(٢٨) تجمعت لدي في جزء خاص قدمته هدية لاسرة الرافعي ليكون الرابع في وحي القلم .
(٢٩) وحي القلم ٣ / ٤٥٥ .

في حياة النقد ، وقد خشي عليها ان تختلط فتفسد اكثر مما تصلح ، فاعد لذلك «درسا في المكابرة» يقول فيه :

« اذا حبك عمل المرء المجد فالدهر لديه مستأنف جديد ، والدنيا لديه كصحيفة المصور(٢٠) يعدو فيها ويثبت ، ليحكم التناسب ، ويصحح الوضع »

قال : « ولكن الشر الذي يسلس من داء الحكيم ، ويضيق به صبر الحليم ، ان تسير في جانب القصد من عملك ، ويمشي في عراضك(٢١) رجل من حمقى المكابرين ، نصفه لسان ، وباقيه نصف انسان فاذا خطوت قال : عثارا ، واذا كبوت قال : الكسارا واذا استويت قال : ظل لا يقيم ، واذا التويت قال : ذنب لا يستقيم ، . . وذلك شيء من طبيعة المكابرة »(٢٢) واذا ما قيل في ذلك ، انه الراي والمعارضة ، قال الرافعي :

« ليست المعارضة منكرة لذاتها ، فقد يكتب الله فيها السلامة من عوارض الحسد ، وسوء التحفظ ، فلا تقوم الا في جانب النصيحة او ناحية من الراي . ولكن شر البلاء في المعارضة التي يبعث عليها القلب الظنين ، وبهيجها تغلغل النفس الى اسفل طبقات اليقين ، فهي وان تكن في سبيل المراة من هذه العوارض ، ولكنها على الحقيقة فن من فنون المخاصمة ، موضوعه كفر الاحسان ، وغمط الصنيعة والبحث في وسائل الغلبة الحيوانية(٢٣) وغايته استفاد النفس الكريمة »(٢٤) .

ومن هنا يظهر لنا واضحا وجليا كيف ولماذا وانت بعض صفحات له في النقد شديدة الوطاة ، دامغة الحجة ، واقعة كالصاعقة على رؤوس مجادليه لا تدع لهم مجال الدفع عن انفسهم ، وتقطع عليهم سبيل الرجعة ، في الوقت الذي كان فيه يهمل بعض من يتعرض له بغمز اولمز ، او نقد غير مستوفى او من يتساءل عن بعض ادبه ببلاهة(*) .

وهي — تلك الصفحات — تصور لنا بدقة مبلغ الاحساس الذي كان عليه ، وشدة الحرص على موضوعه حتى لنجول به احيانا الى ما يشبه الهواجس والاوهام(٢٥) .

ثم انه لينعى على هؤلاء وامثالهم احتراف الادب ، وما يجيء به من غرور يحمل صاحبه على التهلكة ، وما لا يمكن له دفعا(٢٦) .

وما برح يدفع عن نفسه باسلوب التجريد ، ويتجاوز الرد الى الايضاح ، او يردفه بالتعقيب ومناقلة الحديث ، فلا يتطلع معهم شعرة معاوية(٢٧) حتى لنراه اقرب الى التوجيه والتعليم منه الى الاعتداد الذي قد ينقلب معه الى ما لا يريد من الغلو والاسراف .

غير انه ماعتم ان انفجر كالبركان الثائر يقذف بالحمم يوم اتصل النقد بشيء من ضمير الامة واعتقادها المتين ، فقد خشي على الادب والفكر ان يصيبهما نوع تعويق او لون التواء ، واراد النقد علما وعملا ، لا تلفيقا ومفتريات(٢٨) يفيد منه التهريج السياسي حسب ! .

لقد امتشق قلمه يدافع عن دين الامة وينافح دون تراثها ، ويثبت لها وجودها الكريم ، امام فتنة المستشرقين والمستغربين التي سميت دراسة في الشعر الجاهلي .

وسخر من المفترين على آي الذكر الحكيم ، وسفه آراءهم واحلامهم(٢٩) ولكنه لها بشعر العقاد ، وعبث بادبه ، وضحك من تلصصه وترجمته(٤٠) .

فلسفة النقد ومذهبه فيه :

على ان ممارسة النقد لدى الرافعي كانت تستحثه التحول من التعريفات الاولى التي شغل بها

---

(٢٠) يريد الرسام .
(٢١) عراضك : حبالك .
(*) تامل الصورة !
(٢٢) الجريدة — ١٩١٣ .
(٢٣) اخذ العقاد هذه العبارة ليرمي بها الرافعي وينسل ، فيما كتبه لجريدة (الجهاد) ١٨ مارس / آذار ١٩٢٢م ، اذ قال : « يظن الرافعي ان المناقشة هي ان تقلب ، وعلامة الغلب ان يظل يتكلم » وكان الرافعي قد تحدث عن غلبة الثرثرة هذه في مواجهة طه حسين — المعركة — ٣٢ .
(٢٤) الجريدة — السابعة .

(*) غمز طه حسين له في بعض مقالاته للجريدة ، والتي عاد يحصرها بعلة فهمه ، ونقد هيكل لكتابه — في الفراغ ٢١٢ ، وبلاهة سلامة موسى بسؤاله عن الاشتراكية — المقتطف — حزيران / يونية ١٩١٣م .
(٢٥) انظر رسائل الرافعي ١٠٠ ، ١١٥ ، ١٧٧ ، ٢٥٢ ، ٢١٦ الخ .
(٢٦) الزهور — ١٠ / ١٩١٣م .
(٢٧) المثل العربي .
(٢٨) الزهور — السابق .
(٢٩) سيرد ذلك مفصلا في مكانه من فصل تال .
(٤٠) سيرد ذلك مفصلا في مكانه من فصل آخر .

مقدمات دواوينه ، فيبحث فيها عن « طبع صقلته الحنكة ، وفكر جلا مشاهده البيان ، وقلب يخاطب القلب»(٤١) فكان له من بعد مذهب عرف به ، واتخذ سبيله العلمي في « المقتطف » خاصة ، منذ يوم كتب فيه عن « شعر البارودي »(٤٢) حتى بعد يعقد فصلا يزن فيه « شعر صبري »(٤٣) واثنى يتحدث في « الشعر العربي في خمسين سنة»(٤٤) ثم لما تهيأ له ان يكتب في الشعر وفلسفته(٤٥) ليطبق ذلك على حافظ ابراهيم ونظمه(٤٦) واحمد شوقي وعبقريته(٤٧) فكان الناقد القويم الذي استكمل آلته واحسن في استعمال اداته ، وكان المحلل البصير ، الذي يدل على دقة نظره وحسن بيانه ومقدرته على غربلة الامور(٤٨) .

قال الرافعي : « النقد انما هو اعطاء الكلام لسانا يتكلم عن نفسه كلام متهم في محكمة ليقيم حجة ، او يزيح شبهة ، او يقرر حقيقة ، او يبسط معنى ، او يوجه علة ، او يكشف خافيا ، او يثبت نقيضه ، او يظهر احسانا ، ويوقع ادلة العلم والفن والذوق مواقعها »(٤٩) .

والشاعر والناقد يلتقيان في القارىء ، فوجب من ثم ان يكون الناقد قوة تكشف قوة مثلها ، او دونها ، ليصحح فن فنا مثله ، او يقره ، او يزيد عليه فضل بيان ، ومزية فكر »(٥٠) .

وبعقد الموضوعية كان الرافعي ناقدا له مذهبه واتجاهه وله عطاء في التجديد فريد ، وتمكن من المحافظة بعيد ، فهو يجري مع اشواط القوة الفنية عند الكاتب او الشاعر ليدرك ما فيها من ضعف او قوة ،

وقد حاول الاستاذ مصطفى عبداللطيف السحرتي ـ وهو يجول في « الشعر العربي المعاصر

(٤١) ديوان الرافعي ـ ١ ـ ٥ .
(٤٢) المقتطف ـ آذار / مارس ١٩٠٥م ـ
(٤٣) المقتطف ـ أيار / مايو ١٩٢٣م ـ وحي القلم ٢ ـ ٢٥٩
(٤٤) المقتطف كانون الثاني / يناير ١٩٢٦م ـ وحي القلم ٢ ـ ٢١٩ .
(٤٥) ابولو / أيار / مايو / ١٩٣٢م .
(٤٦) المقتطف / تشرين الاول / اكتوبر ١٩٣٣م .
(٤٧) المقتطف / تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٣م .
(٤٨) انيس المقدسي ـ الفنون الادبية واعلامها ـ ٢٢١ .
(٤٩) ابولو السابق وراجع عبدالحميد يونس/ الاسس الفنية للنقد الادبي ـ ١٣٥ .
(٥٠) ابولو ـ السابق .

على ضوء النقد الحديث »(٥١) ان يضم الرافعي على أقرب من سابر المذهب الذي دعاه بالفقهي(٥٢) .

ثم جاء الاستاذ علي الراعي كالذي يريد توضيح تلك الصفة ، فنعت نقد الرافعي بالمدرسي او الجامعي(٥٣) الذي ينظر في الشعر الى نحوه وصرفه ، وعروضه ، وبيانه وبديعه ، وفي بعض الاحيان الى معانيه (٥٤) دون الكشف عن سحر القصيدة ، ولا ما لا يمكن فيه من انفعال او عاطفة او فكر او موسيقى .

ومن هنا لقف عزالدين الامين النمت ، فاراد ان يسمي للرافعي مذهبا في النقد دعاه بالنقد الفقهي الذي يعتمد على علوم العربية والبلاغة ، والرافعي فيها بليغ اراد ان يجعل النقد كفقه اللغة وعلومها ، قال الامين : « ومن هنا اعتراه الغموض ، حتى حسب هذا ان تعريفا للشعر العربي لا يستطيع الرافعي نفسه ان يفهم منه شيئا »(٥٥) .

وقد طمع الدكتور حلمي مرزوق ان يسمي للرافعي ذلك المذهب بالبيان ، ويجعل لغته واسلوبه على المجاز(٥٦) وان باخذ على الامين تجاوزه هذاك ، وبعلل التعريف ، وبذهب مذهبا عزيزا في التحليل والاستنباط في دراسته القيمة التي بحث فيها « نشأة النقد وتطوره ، ويدير في ذلك معاني وشواهد دل بها على مصابرة وحسن تأدية وتوفيق ، مع ما اتسم به من الموضوعية الكاملة(٥٧) .

ومع ذلك كله فقد يلوح لنا ان مذهب الرافعي في النقد يبقى متميزا على هذه الدراسات ، غير خاضع لمناهجها ذلك الخضوع الذي يجعل من احكامها غير قابلة للاستئناف .

والرافعي نفسه في عبارته التي دار من حولها هؤلاء ـ يقرر حقيقة فنية في التفكير العربي نفسه : حين يرى على الناقد ان يملك نصابه من اللغة(*) فكما

(٥١) الشعر المعاصر ـ ١٦٧ .
(٥٢) احسبه أراد النسبة الى الجامع !
(٥٣) المقتطف آذار / ١٩٤٢م .
(٥٤) تطور النقد الادبي ـ ٢٨٨ .
(٥٥) نشأة النقد الحديث ـ ١٧٤ .
(٥٦) طبع دار المعارف بالاسكندرية عام ١٩٦٧م .
(*) ذلك ما يعوز الاديب والناقد العربي المحدث ، وما يفوته من رسالة عبدالحميد الكاتب اليه في التفقه بالدين ، ومن هنا فصلت الدراسات النقدية ، واعتمدت الترجمة في الاخذ عن مذاهب الغرب وابتسار احكامهم النقدية ، من غير مقابلة بين لغة واخرى ، ونظام ولوضى ، وارتجال واحتكام ، وهذا ما نبهنا عليه في دراسة لنا سابقة .

لا تتحقق الزكاة الا بالنصاب من العروض والتجارة والاغياء والنعم ؛ فكذلك الناقد في الادب الذي يزكي آداب الناس وافكارهم في فنون الشعر والادب .

ذلك ان ما عليه الرافعي من ثقافة الناقد الادبي ولوازمه ؛ او آلته وادواته ، لم تكن لتقف عند حدود العربية وعلومها ؛ ولا تقتصر على موضوعات البلاغة وفنونها ، ولا يحدها البديع بمخترعاته على الشكل الذي انتهت الينا به . لا . . بل ربما كان قد عد الجهل بهذه ينشيء الادب العربي نشاة اخرى(٥٨) .

انه جعل من الحفظ والرواية والبصر باساليب النظم وملاحظة اوضاع اللغة ؛ والتامل في اسرار البيان والاشراق بالتفكير ؛ للوقوف على دقائق وحقائق في الكلام العربي قد لا تكون علوم اللغة وقواعدها قد وصلت اليه ؛ وسبر اغوار ذلك كله في فهم وفقه ويقظة ؛ هو الذي يجعل من الناقد اكثر اصابة ؛ وابعد هدفا والا فمن اين للاديب العربي . . الجاهلي والاسلامي . . كل هذه الفنون والعلوم التي استنبطها العلماء من شعره وادبه للاعاجم كي يفصحوا في اعرابهم .

اجل كانت التربية البيانية على اسلوب تلك النظرة التي تنشيء الاديب العظيم والناقد القويم ، وليس على هذا الحشد الكاثر من التعريفات والنظريات ؛ والتعريفات والامثال المسماة على ما يستنبط من قواعد .

ورد ذلك وامثاله في معظم ما تصدى لكتابة فيه ؛ نقدا او تاليفا ودعوة ، وركز عليه حتى في رسائله التي يوجه فيها من يسالونه وجهة الادب الصحيح(٥٩) .

وزاد عليه تلك النظرة البدوية للادب ؛ حين دل على الاساس الفطري الذي قام عليه ادب القوم ، وشعرهم قبل ان تنهض له هاتيك العلوم والفنون من بعد ؛ فقد قال :

« ليس عندنا عبادة لفظ ؛ ولا الاعيب الفاظ ؛ ولا شيء يسمى استعارة او مجازا . فان هذه كلمات اصطلحوا عليها بعد الاسلام ؛ عند تدوين العلوم . ولم يعرفها بلغاء العرب . ولا تعمد صناعتها البيان »(٦٠) .

ومن هنا يجب ان ينظر الى الرافعي في ادبه ونقده ؛ وليس من الجهة المعاكسة الضليلة التي تظهر في السحر بالبهتان .

لقد كان النقد آنذاك تتوزعه مذاهب ومشارب لما تستقر على مرساة علمية ؛ فيها هدف الاقالة من عثرات الاقلام ، او النهضة بعد وطأة الايام ؛ او الراي مع اختلاف الانواء او السعي فيما اضافته الاقدار وخلفته الاوزار ، . فالبلاغة قد شاخت اساليبها في علومها وفنونها ، وشابت اشكال البيان فيها ، وخرفت بديهياتها من كثرة ما اتسعت عليها الخروق ، وتعددت رقعها ؛ وهرمت معانيها . وكادت مفرداتها تبلى ؛ وقد حالت كلماتها والفاظها من كثرة ضرب الامثال وتقليب الاشكال .

والمستوردات من الافكار الواصلة الينا ترجمة مبتسرة واستنساخا والتي كانت قد عايشت ادب القرنين الماضيين في بعض اقطار واداب لغات اوربية قد تكونت بنظرياتها وآراء اصحابها ؛ ومذاهب مفكريها ، ومفهومات مترجميها ونقلتها ، بحيث لم تدع لما جد من حيوات الادب مجال نمو واتساع ، الا في آفاق الخروج عليها مناهج وافكارا .

والذوات كادت تختفي وراء تلك الاكداس وهذه الاكوام وهاتيك البقايا ؛ حتى لا تكاد تعرف اسلوبا يتميز به اديب منهم الا بمقدار تاثره بهذه او تلك .

وكان بذلك لابد من « انبعاث عربي » في النقد بكل ما تنبه هذه اللفظة من معنى ، لا يجوز على التراث ، ولا يتلبس باحوال الاخذ غير المباح ، وانما ينبت ثمار البيان مجددا ويتعهدها بالتهذيب الحديث ، ويرعاها بالمعاصرة التي تفقه حياة الادب ، وتسمو بالفن وتتجلى بالعرفان الحق والعلم البصير .

ومن هنا من ذلك الوازع القومي الضمير العربي ، ومن موروثات اعتقادية تجري في ذماء العروبة ، ومن دم ، زكي كريم له قوام خاص في قلب من تحدر من

ومن عجب ان الاستاذ هـ . ا . جب اخذ بمذهب الرافعي هذا ـ دون الاشارة اليه ، وذلك في قوله :
(ان التجديد الحقيقي انما يكون بالتمكن من اللغة ، ولابد من نهضة تحدث انقلابا في الافكار والاراء تمهيدا للنهضة في الحياة القومية) راجع (السياسة) ـ ٢٠٤ في ١ شباط / فبراير ١٩٣٠م والتفت الى الرافعي في المقتطف / نيسان / ابريل ١٩٢٥م والمعركة ـ ٨٦ .
وكان الرافعي قد عد بعض ادبه الانشائي وروعة الفاضلي طلائع لنهضة التجديد في راي حصيف عرف عنه في حالتي الاعتداد والمدافعة ! .. فتامل !

(٥٨) المقتطف ـ كانون الثاني / يناير ١٩٢٦م ـ وحي القلم ٢ ـ ٢٢٢ .

(٥٩) انظر رسائل الرافعي ـ ٢٦ وقوله لابي ريشة : اجتهد ان تكون مفكرا ناقدا ، وعليك بقراءة كتب المعاني قبل كتب الالفاظ .

(٦٠) البلاغ ٩ ربيع الاول ١٣٥٠هـ .

نسل الخليفة الامام ؛ انبعث الرافعي في النقد ، وقد اراده كذلك مذ يوم عقد فيه الفصول ينظر في الشعر العربي ؛ ويلفت النظر الى ما يقوله الشاعرون(٦١) فيحاول الشيخ رشيد رضا معه الملاءمة في الدعوة واللطف ، لا الغلو في قدح القديم(٦٢) .

ومذ يوم حاول توزيع « شعراء العصر » في طبقات ، اخر فيها احمد شوقي الى الدرجة الثانية؛ وقدم نفسه في الاولى(٦٣) ومذ يوم كتب في شعر البارودي تلك الصفحات التي ما برحت تنتقل في كتب الدراسات الادبية « اليوم(٦٤) وقد عده غير كامل التصرف في المعاني ، وان كان في اسلوبه سلامة يستريح في ظلها القلب(٦٥) .

وقد احترس من « حرفة الادب »(٦٦) واشار الى العلم والرم في التأليف والتصنيف(٦٧) حتى راح يدفع عن نفسه بعض ما توهمه في ادبه الناقدون ، او ما تصدى له به ذوو البهتان(٦٨) .

ثم انه لما انفجرت الايام في تلك اللوثة الفكرية التي استطالت فيها قالة السوء ، والسنة الحمق ؛ واقلام المسخ ، ان تلوك كلاما من زيغ الاعتقاد . وتلحد فيه للقرآن العظيم فتلحق بعض آيه البينات بالاساطير ، او تستهين بمبناه ونظمه . او تنعت عقيدة اهليه وتتنقصهم ؛ كان الرافعي لسان الحق المنافح عن الاعتقاد القومي للامة بقوة قلمه ، وثبات جنانه وبعلمه وفضله .

والرافعي في اتون تلك المثارة الرهيبة يصطلي لهيبها وحيدا ، ولا ظهير له يومذاك غير توفيق الله وتأييده بنصره(٦٩) عاد يفكر في الكتاب الذي يجعل للنقد الادبي مكانه من مذاهب الفكر الانساني . وكان له مشروع جليل من « اسرار الاعجاز » الذي رد فيه علوم البلاغة الى اصول غير التي اصطلح عليها علماؤها ، ووضع لها قواعد جديدة ، وبينات اخريات ليتحدث من ثم في بلاغة القرآن مسترشدا بما قدم من قواعد ؛ وليأخذ بعد ذلك آيات من الكتاب الكريم باسلوب من التفسير يبين سر اعجازها في اللفظ والمعنى ، ونظم القرآن والفكرة العامة(٧٠) وقد عده من اطلع عليه « كتاب البلاغة العربية في ابعادها الجديد »(٧١) .

والكتاب وان لم يظهر على حدة ، فان اوضاحه ماثلة في ادب الرافعي ، ومذهبه في النقد ، الذي اجتمع له منه ما لاح به هنا وهناك في تطبيقه لنقده — على ما مر بنا من امثال في فصل سابق —

ومع ذلك فان الرافعي قد افاد ايما فائدة من علوم العرب في البلاغة والنقد ؛ كما افاد ببصيرة نفاذة من مناهج البحث والنقد عند الامم ، دون ان تطغى احداها على شخصيته ، او تحول في ابعاده ؛ وفي نقده لعباس محمود العقاد — على السفود ، وتصديه لطه حسين — في المعركة ؛ وسخريته من زكي مبارك واخماله شان سلامة موسى ، شواهد كثيرة جدا ؛ ربما توفرت في فصل تال ، وهي تبرهن على مدى ما كان عليه من فهم واستيعاب ؛ وملكة خاصة تتوفر على جوانب هامة من مناهج البحث والنقد ؛ حتى ليعرض لما كان يخلط فيها مترجموها ومبتسروها — او سارقوها — على ما سيبين لنا هناك .

على انه في نقده — الذي يجد به او يلهو ، او يعبث احيانا ويفارق — كان يفتش عن مكمن الضعف في خصمه ليسدد اليه الضربة القاضية التي لا قيام له بعدها(٧٢) وربما اندفع في هذا السبيل المخاطر — يحسب ان خصمه يقدر فيه هذا الهدف ، فيكون له منه منبهة وعظة ، ولكنه كان يجر عليه المتاعب ، من استدارة هؤلاء الخصوم بعيدا عن حلبة الصراع، ورميه من هناك بما لا يقدر من محاذرة ، فهو يحسب ذلك فرارا ، بينما يقيم فيه المتربصون شاهد غلبة(٧٣) .

ويبقى بعد ذلك نقده في مذهبه الفريد ؛ ومنهاجه الجديد محافظا على روح العروبة في تراثها، من تصانيف رجال علومها ؛ وتاريخها وآداب لغتها وفنونها جميعا .

---

(٦١) المنار — المحرم ١٣١٩هـ .
(٦٢) المنار — صفر ١٣١٩ ٢٠ مايو / ايار ١٩٠٠م .
(٦٣) الثريا — يناير / كانون الثاني ١٩٠٥م .
(٦٤) راجع محمد صبري — ادب وتاريخ ، وعمر الدسوقي في الادب الحديث ، وحلمي مرزوق — تطور النقد والفكر الادبي وشوقي ضيف — البارودي ، والحديدي — البارودي وغيرها من الدراسات .
(٦٥) المقتطف — آذار / مارس ١٩٠٥م .
(٦٦) الزهور — آذار / مارس ١٩١٢م .
(٦٧) المعركة — ٧٦ .
(٦٨) انظر الجريدة ١١ يناير / كانون الثاني ١٩١٣م مثلا . وسترد امثلة اخرى !
(٦٩) اسحق موس الحسيني — الاخوان المسلمون — ٧ .
(٧٠) حياة الرافعي — ٣٨٩ .
(٧١) حدثني بذلك الاستاذ محمود محمد شاكر .
(٧٢) الرسائل — ٣٨٦ .
(٧٣) انظر العقاد — الجهاد ٢١ مارس / آذار ١٩٢٣م وراجع بدوي طبانة — التيارات الادبية المعاصرة وتأمل حكاية الصاع والصاعين — ٦٧ .

فهو اذا ما عرف بشاعر ، او قرظ كتابا ، او نقد موضوعا ، لا تراه يغلو او يسرف بالقدر الذي يستطيع فيه مؤاخذته ناقد اخر ، وانما نجد العكس تماما ، ونرى الانصاف غالبا ، وكثيرا ما تورط معاصروه في تقاريظ من ذلك النوع المسرف ، او الانتقاد الغالي ؛ فيجيء هو يصحح ما ذهبوا اليه وليكشف عن دقائق في المعاني والصيغ ؛ فوتها عليهم ذلك الاسراف الغالي(٧٤) .

وهو اذا ما تصدى لنقد او دراسة كان همه ان تمتاز بالوفاء والقصد ، فلا تختلط عليها الاراء والمفهومات ، ولا ترتبك في النقل والترجمة ، كي لا تنزلق في احكام يمكن نقضها بسهولة(٧٥) .

وهو اذا ما اراد مناقشة راي من الآراء او مذهب من المذاهب ، دار معه دورته في المنهاج ؛ وساءله عن احكامه ، وربما رد عليه سوء فهمه او تصوره وخلطه ، كما في الفكرة والارادة التي حاول العقاد فيها الراي والرد على شوبنهور ، فلم يوفق في النقل ؛ ولا فهم الترجمة ، فافترق(٧٦) ومن هنا اعتبر « احد الجهابذة الذين ما فتئوا متفانين في نصرة العربية ، عاقدين عليها بالخناصر للدفاع عن حياتها »(٧٧) .

وهو في الموقف الاخر من النقد ــ حيث يرى مدافعا عن عقيدته ، تستبد به الحماسة مع علمه وفضله ؛ فيندفع كالبدوي الثائر لعرضه ان ينتهك مع حد تعبير العريان(٧٨) حين قال : « ترادفت مقالات الرافعي ثائرة مهتاجة ، تفور بالغيظ والحمية الدينية ، وبالعصبية للاسلام والعرب ، كأن فيها معنى الدم » يوم تصدى طه حسين لبعض آي الذكر الحكيم(٧٩) ينقل المعركة من ميدان الى ميدان آخر .

ومن هنا فات الكثيرين مبلغ تمكنه من التقويم والتحقيق ، ــ او فوت على نفسه ــ فتشبثوا ببعض لفظ له يتحمس في الرد ؛ او يبالغ في الايذاء .

القديم والجديد :

اما حين يشاكس او يسخر او يستهزىء بالنقد ، فانه ليمارس نوعا من الاستعلاء والكبرياء الذي لا يليق بمنزلته ، وربما اتهم في اخلاقه وتواضعه جراءها ــ وان كان في معرض الذب عن نفسه ، او الرد على مناوئيه ، والبادين بظلمهم له ، .. فهو ذو علم وفضل خليقين بالكياسة والصبر ، لا يصح ان يضيع بعضهما في نوع حماسه ، وان كان مخاصموه لا يرعون الا ولا ذمة في « المشاكسة » التي مارسوها معه ، « والسفاهة » التي يستطردون بها فينقلون الموضوع ويغربون عن الصدد ؛ .. فقد كان عليه ان يترفع اكثر ، ويتنزه عن مثل ذلك المضطرب .

وهو مع ذلك كله كان يرى في الكتابة وفنونها التقويمية من المجابهة والنقد كفنون الحرب ، «لابد من ابداع لتغيير ما لا يتغير في نفسه ، ومع ذلك فهي ــ الكتابة ــ لا تزال تجدد وتبدع »(٨٠) .

انه كان يريد تصحيح وتوجيه دعوة التجديد ــ التي كان لها زوبعة قائمة في صحف ذلك العهد واقلامه ، ــ وجهة ترضاها الروح العربية في دينها ولغتها ، وتطلقها في الاستقلال . فهو يرفض التبعية الفكرية ، وذوبان الشخصية القومية ، واختفاء الذات مع الجهل والاتباع ، حتى ليقول :

« ان ارادوا بالمذهب الجديد العلم والتحقيق وتمحيص الراي والابداع في المعنى ــ على ان تبقى اللغة قائمة على اصولها ، وعلى ان يكون التفنن « طرائق » لا مذاهب يراد بها اثبات ومحو ، فاننا لا ندفع شيئا من هذا ولا نتازع فيه ، بل هو رابنا ، بل هو راي الحياة ، بل هو قانون الطبيعة »(٨١) فهو اذن من ابعد الناس منزعا الى التجديد في طريقته الصحيحة .

ويدعوه الحفاظ على استقلال الفكر العربي ووحدة رجاله ، وتماسك امته ، وثباتها في معركتها القومية التي يجب ان تثبت فيها وجودها الكريم ــ ان يتابع قوله هذاك كالذي يستدرك على السائل :

« ولكننا مع هذا نزيد عليه ، ان الاصل في كل ذلك سلامة اللغة وسلامة القومية ، فلا ننظر في آراء الامم الا على اننا عرب ، لا ننقل من لغات الافرنج الا على اننا اهل لغة لها خصائصها ، فلا تصرفنا مدينتهم عن انفسنا ، ولا تاتي بسبوفهم لرقابنا ، وبنزعاتهم لقلوبنا ، بل تؤثر الفضيلة على الراي ، ونرغب في المصلحة على المفسدة »(٨٢) .

---

(٧٤) انظر الرسالة ــ ١٦١ ، وكيف رد على العقاد نقده لشعر شوقي ــ وحي القلم ٢ ــ ٢١٦ .
(٧٥) الرسائل ــ ٢٨٦ .
(٧٦) انظر (على السفود) ــ ٩٠ ــ ٩١ .
(٧٧) يوسف يعقوب ــ لغة العرب جمادى الاولى ١٣٣٠هـ / نيسان ١٩١٢م .
(٧٨) حياة الرافعي ــ ١٦٧ .
(٧٩) انظر مقالاته في كوكب الشرق ، وسترد في فصل تال .
(٨٠) الهلال ــ آذار / مارس ١٩٢٩ .
(٨١) المعركة ــ ٩ .
(٨٢) الهلال ــ شباط / فبراير ١٩٢٤م .

ثم انه يتساءل بمثل قوله : « ثم ايما خير لادابنا وعلومنا وكتبنا ، ان نحرص على الاصل الصحيح القوي الذي في ايدينا حتى ينشأ جيل اقوى من جيل ، وتخرج امة خير من امة ، فتجد الاصل سليما فتبنى عليه وتزيد فيه ؟ !

ام ندع الاصلاح للفساد ، ونتراضى في القوة حتى تحول ضعفا ، ويعود الجديد قديما ، فيستحدث من جديد على نمط آخر ، وهلم جرا ، حتى تصير العربية في بعض ازمانها لعنة على كل ازمانها »(٨٣) .

وكان قد سبق له القول : «ان المذهب القديم، هو ان تكون اللغة لا تزال لغة العرب في اصولها وفروعها ، وان تكون هذه الاسفار التي تحويها لا تزال حية تنزل من كل زمن منزلة امة من الفصحاء

ويكون الدين العربي لا يزال هو هو ، كانما نزل به الوحي امس ، لا يفتننا فيه علم ولا راي ، وان ياتي الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين : اذ لا يزال منهما شيء قائم كالاساس والبناء »(٨٤)

وراى العلة في اضطراب القوم من العصبية للادب الاجنبي ـ التي وجهت الذوق في الادب واساليبه الى تفسير معين بحكم الهوى ، ثم جعلت الفهم من وراء الذوق هذاك .

ان الحرص الاعتقادي في الانسان العربي الذي تمثل في الرافعي يومذاك ، كان يقتضيه الحفاظ على الروح القومي للامة ، بأجلى مظاهره من الغيرة على الطابع الذي يميز الفكر والادب والذوق الذي يتعصب له ، فيحفظ لها ذلك الاساس المتين الذي يحفظ لها وحدتها وقيامها ، ويحول دون الانفراط من صفوفها ، او الانشطار في مفهومين متفاضلين ـ على بعدما بينهما من الذوق والاعتقاد .

انظر اليه حين دس طه حسين انفه في بعض هذا الجانب ، يجر الرافعي ناحية اخرى ، ويبعد القراء عن مفهومه العربي الاثير ، واعتقاده القومي الخطير ، وزعم انه لا يفهم من كلامه هذه الجملة ، « وانت تعلم ان الذوق الادبي في شيء انما هو فهمه وان الحكم على شيء انما هو اثر الذوق فيه : وان النقد انما هو الذوق والفهم جميعا »(٨٥) ثم دار طه بهذه العبارة دورة العاصفة في نوع مبالغة كاد يجعلها

(٨٢) الهلال ـ شباط / فبراير ١٩٢٤م .
(٨٤) المعركة ـ ٩ .
(٨٥) السياسة ٢٤ مارس / آذار ١٩٢٤م .

كمسألة الدور والتسلسل عند المناطقة(٨٦) بل جعلها من قبيل « قصة وقضية »(٨٧) وضرب مثلا بالموسيقى والذين يتذوقونها ويطربون لها ـ وما يظن انهم يفهمونها جميعا(٨٨) .

رد الرافعي عليه بتؤدة ، يحلل له مثله الموسيقي هذاك ، بالسمع والفهم والحكم والنقد ، ثم اراه معنى العبارة ، والذوق عن الفهم ، واثر الذوق في الحكم(٨٩) حتى قال معقبا على دعوى الدكتور طه ، الذي يقرأ كلام الرافعي فيفهمه ولا يتذوقه « ان عدم الذوق هنا هو الذوق ، وليت شعري ما معنى قول ابي الطيب :

ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مرا به الماء الزلالا

وكانما ادرك الرافعي الحيلة(٩٠) فعاد الدكتور الى الاساس القومي الذي يدعو اليه في فكره وادبه ، ونقده وتقويمه ، حين قال :

الحرص والتكامل :

« انا وامثالي انما نحرص اشد الحرص على هذه اللغة ، لانها اساس الامة الاسلامية ، فلا نرضى الا ان يكون هذا الاساس متينا لا يزعزعه شيء ، ولا يثلمه شيء ، ولا يضعفه شيء » .

لست انكر التجديد ، وانما انكر شيئا واحدا هو : ان يقال مذهب قديم ومذهب جديد ، فقد وسع الله على الناس فيما علموا وفيما جهلوا ، .. فالخير عنده « ان تعتد اللغة والادب كل ما اجتمع من قديم وجديد ، ونحكم هذه اللغة ونحفظها ، وندفع عنها ، ونجعل تجديدها كتجدد الحسناء في اثوابها وفي الوانها ـ دون تشويه او مسخ ، ولا مس الجسم الجميل »(٩١) .

(٨٦) ، (٨٧) السياسة ٢٢ نيسان / ابريل ١٩٢٣م وكان الرافعي قد دس سؤالا الى الدكتور طه حسين في اسلوب من اسلوبه ، عرض به في موضوع المعلمين « قصة وقضية » ولم يفطن الدكتور الا بعد نشره ـ راجع المعركة ـ ٨٢ .
(٨٨) انظر حديث الاربعاء ٣ ـ ٢٧ ، وقف بنفسك على ذلك « الادب » الرفيع في النقد والبحث !
(٨٩) السياسة ٣١ مارس / آذار ١٩٢٤م ـ وحي القلم ٣ ـ ٣٨٩ وقد زاد الرافعي في تحليله حرفا جر لعبارته انما هو « من » فهمه ! وقال انما هي في باب المجاز واحدة.
(٩٠) في مفارقة الدكتور ودورانه الصحفي حول نفسه ! .
(٩١) السياسة ـ السابق ، ولعل من الغرب ما وقعت عليه ، ان هذا المذهب كان قد ادعاه محمد مندور ولهج به ، وخاصمه عليه زكي نجيب محمود، الفكر المعاصر ـ ١٩، وفاتهما ارجاعه لصاحبه ! .

ان الرافعي ليتضح لنا اكثر فاكثر كلما وقفنا على قول جديد له ، ويلوح في مذهبه النقدي تمام الوضوح . ـ وقد استوعب ثقافة العصر في صورتيها القومية والانسانية ، وكان له من حالته النفسية في يقظة ضميره العربي ، وفي استعداده قوة تمسكه وتمكنه وتحفظ فيه توازن الانسان العربي في عهد التبعية الفكرية والاحتلال البغيض ـ فتجعل منه المحافظ على وحدة الفكر ان تتصدع ، وسمو الاعتقاد ان يزيغ ـ وهو يخوض معارك الحياة مع المباديء الوافدة والافكار الضليلة ، والاراء المترجمة ومفهوماتها في التعصب للاجنبي المحتل ! والاخر المتربص ! .

وهو كذلك يفيد من الجهة الاخرى ، في تجديد عطاء النقد بتطعيمه بالفكر ، وانمائه في رحبة آفاقه ، واتساع مبادئه ، وتطور معانيه ، والائتمار فيها ، . وعند جلاء البيان فيه باساليب من الحقيقة والمجاز ، بحيث لا تعود احكامه غليظة جافة ، ولا ترتد ناعمة هينة ! .

وهو في كل ذلك انما يرمي الى اثبات الفكر العربي ، وقيام الاعتقاد ، والتسليم للاجادة فيه والحسن الذي يمتاز من غير حذلقة ولا مغالطة ، تستبطن مفهومات وافكار تتأرجح ما بين دعوة التجديد وبين الموضوعية والالتزام وما اليها من دعوات حسبها الشعارات والعناوين ! . . فقد يكمن وراءها خلق مفهومين متغالطين متناقضين للفكر والادب العربي ، يتوزعان الكتاب والشعراء حزبي خصومه ولدد ـ ان لم نقل فريقي لعب ومعابثة(٩٢) تظل الامة تدور معهما حتى تتهزم وتتحطم بها الايام.

لكن الرافعي لم تكن تشغله هذه المثارات الجانبية فتصرفه عن موضوعه ، ولا تستأثر عنه بغير فضلات وقته ، فهو من الناحية الموضوعية في النقد قد مضى مسترسلا في عمله(٩٣) يكتب في الادب ويبحث في الاديب، ويرى البيان «ينزل من المعنى في تمام التركيب الذي يلبسه منزلة النضج من الثمرة الحلوة ـ لابد ان تستوفي عمرها الاخضر »(٩٤) .

ويدرك ان « الاتساق والخير والحق والجمال امور غير طبيعية في العالم ، فياتي الاديب ذو الفن علاجا من حكمة الحياة للحياة ، فيبدع لتلك الصفات الانسانية الجميلة عالمها الذي لم تكن طبيعية فيه ، وهو عالم اركانه الاتساق في المعاني التي يجري فيها، والجمال في التعبير الذي يتادى به ، والحق في الفكر الذي يقوم عليه ، والخير في الغرض الذي يساق له ، . . ولا معيار ادق منها ـ ان ذهبت تعتبره بالنظر والراي »(٩٥) .

واللذة في الادب عنده غير التلهي به ، فانها آتية من جمال اسلوبه ، وبلاغة معانيه وتناول الكون والحياة بالاساليب التي هي في النفس ، . . ثم يعد اللذة منفعة كلية ، كسائر ما ركب في طبيعة الحي ، . واديب صناعته غير اديب قومه واديب عصره(٩٦) .

وقد يكون الرافعي استبطن ذاته ، وعرف بنفسه وادبه يوم كشف عن سر الادب ، فكتب يقول : « هو ابدا وراء ما لا ينتهي من جمال ، اوله في نفسه ، واخره في الجمال الاقدس الذي مسح على هذه النفس الجميلة السامية ، فهو دائب يعمل ممزقا حياته في سبحات النور تمزيقا يجتمع منه ادبه ، وما ادبه الا صورة حياته ، وهو كلما ابدع شيئا طلب الذي هو ابدع منه ، لان طبيعته لا تقف عند غاية من عمله »(٩٧) .

وما ينفك يستغرق الموضوع الادبي بعامة ، حتى ينتهي الى محصلة في صفات الناقد حيث تستبد بفكره صورة استاذ الاداب الذي « يجمع الى الاحاطة بتاريخها وتقصي موادها ذوقا فنيا مهذبا مصقولا ، وليس يمكن ان ياتي هذا الذوق الا من ابداع في صناعتي الشعر والنثر ، ثم يجمع الى هذين تلك الموهبة الغريبة التي تلف العلم والفكر والمخيلة ، فتبدع من المؤرخ الفيلسوف الشاعر العالم شخصا من هؤلاء جميعا هو الذي نسميه «الناقد العربي»(٩٨) .

ذلك ان الحكم عنده لم يكن شيئا ، وانما هو بمقدماته واسبابه ، وهي كل « العقل »(٩٩) .

★

اما طريقته في نقد الشعر فانها تقوم على ركنين ، البحث في موهبة الشاعر ـ وهذا يتناول نفسه والهامه وحوادثه ، والبحث في فنه البياني ـ وهو يتناول الفاظه وسبكه وطريقته »(١٠٠) فمذهبه شامل لما يقرره القدامى والمحدثون ، غير انه يضيف اليه من روحه واسلوبه ما يتكامل به النقد ، ويمتاز

---

(٩٢) انظر الانصار ـ ٣٧ .
(٩٣) السياسة ـ السابق ، وحي القلم ٢ ـ ٢٩٢ .
(٩٤) الرسالة ـ ١٩٣ ، وحي القلم ٢ ـ ٢١١ .
(٩٥) الرسالة ـ ١٩٣ ، وحي القلم ٢ ـ ٢١٣ .
(٩٦) الرسالة ـ ١٩٣ ، وحي القلم ٢ ـ ٢١٩ .
(٩٧) المقتطف ـ يناير / كانون الثاني ١٩٢٣م .
(٩٨) ابولو ـ مايو / ايار ١٩٣٢ .
(٩٩) الرسائل ـ ٨٥ .
(١٠٠) وحي القلم ٢ ـ ٢٢٥ .

بالدعوة ، والتنبيه على مكامن الخطر ؛ .. ألا تراه يقول :

« ان القديم كان فسادا في الصناعة في الالفاظ ، يجعلها كلها او اكثرها محالا من الصنعة ، والحديث جاء فسادا في المعاني يجعلها كلها او اكثرها محالا من البيان »(١٠١) .

انه في هذه ــ التكاملية ــ يجمع اليه حصيلة طيبة من مذاهب النقد القديمة والمحدثة في آداب الامم ، بما يأخذه عليها ، والتي تلاحقها الدراسات النفسية بخاصة ؛ وهي التي تكشف عن سر دربته وانفراد ذوقه وقوة مخيلته واسر بيانه ؛ .. ومن هنا ينبغي ان ينظر اليه في آثاره النقدية .

وربما شوهد الرافعي في ثنايا مقالاته التقويمية ينقد كل كاتب بلغته ومنهاجه ؛ فطه حسين في اخذه عن مصادر عربية وتصرفه بأخذه ، وسوء تاويله له ؛ وفي نقله عن مراجع غربية ، وسوء فهمه لها ، . . والعقاد في ترجمته المبتسرة واخذه غير الموفق عن مذاهب بعض الاوربيين وسلامة موسى وسوء طويته ، ومحمد عبدالله عنان واضطرابه في الترجمة والتعريب ؛ وزكي مبارك وصعلكته ؛ وغيرهم .. وبأسلوب النقد « الجدلي القارح » "Pulmeque" الذي له لذته وطلاوته وفعله في النفوس ــ على حد تعبير مجلة « الكشاف »(١٠٢) يحاول مع اولئك جميعا .

نظرة في نقده :

ويبقى بعد ذلك ما عرف للرافعي من فصول النقد ومجموعاته ؛ وقد مر التعريف بمقالاته التقويمية والاستشهاد بها(١٠٣) وهي كثيرة لم تجتمع في مصنف واف ، ولا تميزت بمؤلف على حدة ؛ وان يكن قد اخرج منها كتابا ، وآخر لم يضع عليه اسمه سياسة ، وبقي سائر تلك الاثار مبثوثا في شتيت الصحف والمجلات .

ويوم هم ان ينشر بعض فصوله النقدية ابان المعركة التي تصدى فيها للدكتور طه حسين وكتابه في الشعر الجاهلي ــ بناءا على الحاح القراء ، ضم اليه فصولا في آداب العرب واصول التأليف والتصنيف فيها ؛ ومكانها في الجامعة ؛ وردودا ومقالات قومية يجمعها ذلك المثار الذي احتدم في القديم والجديد ، حيث حمل الكتاب اسمه الفخم « تحت راية القرآن ــ المعركة بين القديم والجديد » طبع غير مرة ؛ وقد تجاوزت صفحاته المئة الرابعة عدا .

وعلى الرغم من استهلال الرافعي له بذلك التنبيه(١٠٤) وقوله :

« انما نعمل في هذا الكتاب على اسقاط فكرة خطرة ، اذا هي قامت بفلان الذي نعرفه ، فقد تكون غدا فيمن لا نعرفه ، والفكرة لا تسمى باسماء الناس ، فما توصف الا كما وصفت من قبل ما دام موقعها في النفس لم يتغير .

قال : « ونحن مستيقنون ان ليس في جدالنا من تجادلهم عائدة على انفسهم ، اذ هم لا يضلون الا بعلم ، وعلى بينة ، فمن ثم نزعنا في اسلوب «الكتاب» الى منحى بياني نديره على سياسة من الكلام بعينها ، فان كان فيه من الشدة او العنف او القول المؤلم او التهكم ، فما ذلك اردنا ولكنا كالذي يصف الرجل الضال ليمنع المهتدي ان يضل ، فما به زجر الاول ، بل عظة الثاني »(١٠٥) .

غير انه لم ينل بغيته من الكتاب الابمقدار ضئيل ؛ وقد فوت على القارىء العربي والدارس الكثير من الصفحات التي طويت وكان لها مقامها حتى في مثل هذا الاحتشاد في الكتاب .

فهو لم يمنهج الكتاب كما يجب ، او كما خطط له ، وكان الاولى به ان يعد له بمذهبه في التأليف والنقد ، ليكون من نوع كتابه الجليل في « تاريخ آداب العرب »(*) ؛ ومعظم الكتاب مقالات صحافية كان من الضروري تحويلها الى فصول نقدية .

وموضوع الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي لا يحتاج ان يضم اليه لطفي السيد في عاميته ، ولا سلامة موسى في تغريبته ، وان كان الموضوع ذا جوانب تتصل بهذا وذاك ، فقد تغني الاشارة ، وتكفي العبارة .

وكان الاحرى بالرافعي ان يعد كتابا في الموضوع الكلي ، من الغارة على الفكر العربي والتراث الاسلامي والدعوات المنكرة القطرية والعامية والتغريبية وما اليها ، ويجمل شواهد الملهاة المأساة من بعض ردوده وكلمه ، . او يفرد للدكتور طه كتابا يؤرخ فيه لعلاقته به اولا في حالتيها من الانبساط

---

(١٠١) ابولو السابق .
(١٠٢) الكشاف ٢ ــ ٢٤٨ .
(١٠٣) في فصل فنون النقد والتقويم عند الرافعي .
(١٠٤) المعركة ــ ٩ .
(١٠٥) المعركة ــ ٩ .
(*) احسب انه كان يرجىء ذلك من كتاب التاريخ الذي لم يتمه ! .

والملاحاة ، وأن يضم اليه مقالاته فيه جميعا ، تلك التي كان له فيها مع الشيخ طه حوار تطور من عهد الى عهد ، ولا سيما ان الشيخ الدكتور قد حصر تلك العلاقة بعلة فهمه ، وادعائه ؛ وتكذيبه على الرافعي(١٠٦) .

★

واما الكتاب الاخر فهو الذي سماه « على السفود » وقد صدر عن دار المحسور ، ينقد ويلهو ويعبث بشعر الاستاذ عباس محمود العقاد وترجماته وبعض فصوله في الفن والجمال .

وكان الرافعي قد وضع عبدالله عفيفي وشعره في الملك فؤاد « على السفود » قبل ذلك بسنتين فما ضم تلك السفافيد الى هذه ، ولا الحق بكتابه كل ما كتبه في الرد على عباس العقاد ، وان اشار في بعض هوامشه الى اضطراب العلاقة بينهما .

وقد بولغ في ثلب الكتاب والزراية باسلوبه ، لانه بقي يتيما مقطوعا لا يكشف عن السبب الذي حدا بالرافعي ان يسود فصوله ، ويهزأ بالعقادهكذا، فقد كان للرافعي يد على العقاد في وظيفته ؛ وفي تحريره في « الدستور » و « البيان » ، غير ان العقاد نكر ذلك الجميل وعق الرافعي فتابع سلامة موسى، وشايع طه حسين في موقفيهما من الرافعي وخصوميتها المستمرة له . وتصدى لكتابه في تاريخ القرآن يقلل من شأنه ويوهن خطره ، وكان للعقاد في ميدان الصحافة والسياسة شأن تنطعت به الايام : فاراد الرافعي ان يسخر من جبروته ؛ حتى ان المستشرق المجري عبدالكريم جرمانوس دهش من قوة نقده وقسوته(١٠٧) .

على ان الكتاب مثل فريد في النقد : دل به الرافعي على مبلغ عمله واجتهاده في النقد ، مع لهوه وعبثه ـ كما يزعم ـ . ولا عبرة بعد باولئك الذين اتخذوا من عنوانه ؛ وبعض ما ورد فيه مفارقة من كلام العقاد نفسه ـ وليجة يقتحمون فيها على الرافعي بشغبهم ونفاقهم وتدليسهم(١٠٨) .

★

أن السمة البارزة لمعظم ممارسات الرافعي النقدية ـ التقويمية ، سواء كانت فكرة ام منهاجا ، ام تطبيقا يلاحقه تعقيبا ، انه كان يستهدف الاصالة والفن فهما ضالته ، يفتش عنها في ناقديه ومنقوديه جميعا ، فلا يصدر براي في احدهم الا بما يعتقده بذاته ، حتى لا يقلد سواه ؛ فيفوت عليه التقليد الفكر والابداع والابتكار .

الاثر النفسي وصيرورته النقدية :

ذلك مذهب الرافعي في النقد والتقويم ، وانجاهه فيه نحو الصفة التعليمية ؛ ومتطلبات النهضة العلمية للامة ؛ يظهر فيه مبلغ علمه دائما ؛ ويوح في اوضاحه حرصه الشديد على الاساس ، ومتانة البناء في الادب الذي يتحرى فيه الوجهة القومية العربية(١٠٩) باعتبارها الوسيلة الشريفة والهدف الرفيع معا .

اما صيرورته النقدية هذه ، فهي غير ما قدمنا من امر الثقافة واخذه او توسعه بالمحفوظ(١١٠) ومدى اطلاعه على الآراء والافكار ، ووقوفه على معالم العلوم الحديثة ومناهجها العلمية والتجريبية.

ذلك انظروفا نفسية خاصة قد تحكمتفي تلك الصيرورة ؛ وزادت طابعها وضوحا وتجلية ، فقد يجمع معاصروه على انه « ذواقة ادب » وعريف بيان وصناجة نغم في وزن جملته(١١١) ؛ حتى في مجال التصدي بالرد على خصومه ؛ . وصاحب الذوق يحاول الارتفاع به ادبا ومعرفة دائما ، كي لا يصاب بنوع خطأ او خلط يوهنه ، او يقلل من اصابته ؛ او ان يتهافت في النظرة ويغرب في المفارقة .

ومن هنا كان حرصه على الامتياز في النقد ، وتحريه مكامن الضعف التي لا مقام لخصمه بعدها(١١٢) .

ثم ان نشأته التعليمية المتقطعة التي فوتت عليه الالتحاق بالمعاهد النظامية ؛ حتى عاد يتدارك الابتدائية منها بعد التمهيد في الكتابة والدرس بين الكتاب وحضرة والده ؛ .. وانقطاعه بعدها بسبب المرض مما جعلهيشعر بالحرمان ؛ فهو يحبالمدرسة

---

(١٠٦) لذلك فصل خاص تال .
(١٠٧) السياسة ٩ مارس / آذار ١٩٤٠م .
(١٠٨) كثيرون اولئك ممن تعلقوا بالذيال العقاد ونافقوا له ، كسيد قطب قبل ان ينقلب عليه ، وكمحمد خليفة التونسي قبل ان يتصل سببه بسعيد العريان وكيل وزارة المعارف وكبدوي طبانة ـ والتيارات المعاصرة ، وربما ورد مبحث من حول قيلهم في فصل آخر .
(١٠٩) انظر سلامة موسى ـ الهلال ـ يناير ١٩٢٤م .
(١١٠) انظر المقتطف ـ آذار / مارس ١٩٠٥م .
(١١١) راجع « كلمات من حافظ » في وحي القلم وانظر صديق شيبوب ـ البصير ٢٥ حزيران ١٩٢٦م .
(١١٢) الرسائل ـ ٢٨٦ وربما كان له عن اثر ممارسة الرياضة وتمارينها في المصارعة والملاكمة .

حيث الالفة والاختلاط بالناس ؛ وحيث الدرس والمتابعة والتمرين ، والمنافسة والمباراة ، ..

وفي بواكير نظمه ما يكشف عن هذه الحقيقة(١١٢) كما في محاولته الالتحاق بالجامعة المصرية غداة انشائها واكتشافه ان ما يلقى فيها من دروس لم يكن فيه الجديد عليه او الذي لا يلم به(١١٤) .

وفي ردوده ومعاناته النقدية ما يشف عن شخصية « الاستاذ » الذي يلاحق تلامذته بالعون والاشارة والتدريب ــ حتى وان عقوه ! .

ومن ناحية اخرى فانه على ما وصل اليه من علم وفضل بقي رهين الوظيفة الصغيرة التي عومل فيها بشهادة الابتدائية الوحيدة التي يحملها ! . فهي اذ تفله اليها صدر النهار تبعث فيه روح التحدي والمطاولة في سلوكه مع رؤسائه الادنين خاصة ؛ ومع الوزارة ! الا من عرف منهم قدره العلمي وادبه العالي وفضله الاجتماعي ؛ فعندئذ يكون له الصديق الحميم ! كمحب الدين (باشا) وحفني ناصف ومحمد وغيرهم .

ومن هنا كانت استطالته في نقده على اصحاب الوظائف الكبرى كلطفي السيد مدير الجامعة والعقاد كاتب الوفد وكاتبه ، وتصديه لرد اصحاب الشهادات العالية كطه حسين ومحمد عبدالله عنان وزكي مبارك(١١٥) .

وهناك عاهته التي ما برحت تثقل عليه في ضعف سمعه حتى اطبق عليه الصمم وهو في فورة الشباب مما ادى الى احتجابه نوعا عن لقاء الناس والادباء والمفكرين الا عن طريق آثارهم ، فان لقيهم كانت الكتابة وسيلة تخاطبهم معه ، والكتابة مهما كانت فهي تحجب الكثير والكثير جدا مما يدور في الكلام عادة ، وما يحسن سماعه ، فهي تضن بالشرح ، وتقتصد بالاختصار ، ..

ومع انه كان يغشى مجالس الادب والندية الفكر في دور الصحافة كالمقتطف والزهراء والاخبار والرسالة وغيرها(١١٦) الا ان وسيلة اخذه كانت محدودة بالكتابة ، فهو يحملها الطاقة وما لا تطيق(١١٧) .

★

اما اثر الزكام والصداع والنزلات الشعبية وما يعتريه من انحراف صحته وهزاله احيانا ، اذ ما كانت حالة لتهنيه بالعافية بله الصحة الموفورة ، . ولعل مصدرها حساسيته المفرطة وقلقه الذي يحرمه الراحة والقرار حتى ينتهي من عمله . فهو الى آخر يوم من حياته كانه من العلم في اوله ، يقرأ ويدرس ويديم التامل والاطلاع ، مما جعله شديد التاثر بالحر والبرد ، وكون جسمه الضامر مما يعالج من الصوم والرياضة ، فربما جعله نهبا لتلك الامراض الموسمية في تقلبات المناخ ــ فهو دائم الشكوى منها(١١٨) .

وهناك حقيقة اخرى شكاها في قوله : « ارى الناس حولي هنا وكاني في قفر ، فمتى يمن الله على بصديق في طنطا يوافقني ويفهمني وانتفع بتشجيعه وتنشيطه »(١١٩) .

فهو يعيش في محيط ضيق لا يناسبه فضلا ، ولا يناوله علما ، ومعارفه واصدقاؤه لا يتعدون بعض اهليه وبني عمومته ، وموظفين في المحكمة وصاحب صيدلية يأخذ منه الدواء(١٢٠) ؛ او بقال ، او صاحب مصلحة في الحكومة ، ومعظم هؤلاء بعيدون عن الادب ومجالاته ؛ فان نظروا اليه نظروا الى حلية او تسلية ــ وهو مع روحه الشفافة وظرفه ودعابته لا يجد الصدى النفسي الذي يتحرى في هؤلاء وامثالهم ؛ حتى الزبال الفيلسوف(١٢١) .

ومع بره بالفقراء وعطفه على المساكين ، واعاشته لستة من الخدم في بيته ، لم يظفر بالشكران من غير واحد منهم هو « حمزة الحسيني » الذي وافاه محبا في آخر عهده(١٢٢) .

وموقف ناقديه من خصومه وجلهم كان يستند الى قاعدة قطرية ــ فرعونية ، في الوقت الذي

---

(١١٢) انظر ديوانه الاول والثاني .
(١١٤) العربان ــ ٨١ .
(١١٥) قد يرد مباحث اخرى .
(١١٦) من حديث الاستاذ محمد عبدالهادي ــ الثقافة ٤٧٠ في ١٤ رجب ١٣٦٦هـ .
(١١٧) كالورقات التي كان العقاد يخاطبه فيها من حول القرآن وكتاب سعد اليه .
(١١٨) انظر الرسائل ، وراجع نعمات فؤاد التي استنتج فيها العقاد ان ادبه كان مريضا مثله .. وتامل ! .
(١١٩) الرسائل ١٢٨ .
(١٢٠) لاحظ الاعلان عن الفسفورتين في صحف ذلك العهد ــ اللطائف المصورة خاصة ، وقول الرافعي : شربت الفسفورتين كاني شربت الكهرباء ! .
(١٢١) راجع العربان ــ حياة الرافعي .
(١٢٢) ولم يزل كذلك حتى اليوم يرافق من يسال عنه ويتحدث اليه بانبساط وكانه اديب ضاع قلمه .

يستغربون فيه بافكارهم ، فلا يغالون بالاذى الا من حيث مصريته غير الكاملة ، وعاهته التي لا دخل له فيها ، كموقف فرعون من موسى عليه السلام « ام انا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين »(١٢٣) .

ومن اسف انهم كانوا يغررون ببعض الناس من هذه الناحية(١٢٤) ويستحثون قومهم عليها . وعلى انه كان يستخف بمثل هذا الموقف ، او ياسى لحالهم معه ، كانت تستبد به حماسة قومية تصل حد الثورة احيانا ! يؤكد فيها على اصالته العربية وارومته الممرية ومنهاجه القومي ، ويغمز القطرية ، ويتهم المصريين ــ وفي يده دلائل تاريخية دامغة(١٢٥) .

تلك هي بعض الاحوال التي كانت تحيط به ، فينزو قلمه شكوى مرة وسخطا احيانا ، فيقذف باللهب والحمم في بعض نقده وردوده .

ومع ان ما فيها لا يخرج عن منهاجه التعليمي ، الا ان ذلك لم يكن مدركا عند خصومه ، فلا يحسون انها من قبيل الدفاع عن النفس ، قدر زيادة غيظهم منه ، وحقدهم عليه وحسدهم له ، ، ومن ناحية اخرى تلوذ بهذه الاحوال ، انه لم يتهيأ له من التلامذة المعجبين به من يستطيع التاثير عليه في ادبه الا بالمقدار الذي يحدده هو ، او يستجيب لدواعيه ، . ولعل اظهر اثنين منهم وهما محمد سعيد العريان ومحمود ابورية ، ما كان لهما غير الالحاف عليه بطلب ذلك النوع من النقد القارح ، فالعريان يستثيره على نقد « وحي الاربعين » للعقاد ليتفرج على شكل الشجار الادبي الذي زعم انه يفيد الادب(١٢٦) وابو رية يطلب اليه ان « يسفد » الدكتور زكي مبارك(١٢٧) .

وحين اراد الاستاذ حسنين مخلوف تنبيهه حول وجه في ادب الحب الذي آثره ، تركه ولم يعد يحدثه في ذلك الشأن(١٢٨) كانه اراد الاحتفاظ بطي الكتمان ! .

★

(١٢٣) الآية ٥٢ سورة الزخرف .

(١٢٤) اذكر ان الدكتور حسن علي ذنون ــ استاذ القانون وعميد الحقوق يوما ما ، لا يفتا ينعى على الرافعي (الاخرس !) موقفه من العقاد ــ من غير ان يكلف نفسه الاطلاع على حيثيات في الامر .

(١٢٥) انظر مساجلاته حول عبقرية ابي نمام في المقتطف ــ ديسمبر والبلاغ ٢٤ منه ــ كانون الاول ١٩٢٢ .

(١٢٦) العريان ــ ١٨٠ .

(١٢٧) من رسالة لابي رية مؤرخة في ١٩٢٥م .

(١٢٨) حدثني بذلك في بيته بحلوان ــ يناير / كانون الثاني ١٩٧٣م .

أما حيائه ، فلم يكن لهن غير دواعي الاستجابة لما يريد ان يتحدث فيه من فن وادب ، وما استطاعت واحدة منهن ، حتى « ماري بني » ان تصرفه عن بعض موقفه المجابه لطه حسين في موقفه من الشعر الجاهلي ، الى معاودة كتابة التاريخ ، واخراج اجزاءه الباقيات التي بقي القراء في انتظار صفحاتها منه حيارى(١٢٩) .

هو اذن شخصية متوفرة ، قوية الارادة ، غير هينة التغيير في الوجهة والراي ، يتواجد احيانا في كابة يمسح بها على بعض ادبه وشكواه ، ولكنها تنقلب في نقده الى ثورة بجميع معطياتها من ارادة التغيير ، والاستبسال في الفداء .

ربما كان تصوره من هذه الناحية يستغرق « المثال الادبي »(*) الذي يراه ، فينبهم عليه واقع الادباء البشر من حوله ، فلا يخاطبهم الا بما يخيل اليه من مثالهم ، او ما يامل ان يطلعوا اليه ، ومن هذه الحياة خيل لصديق شيبوب انه كان يعيش حياة اديبه خاصة كلها رؤى واحلام اذا ما اتصل سبب منها بالواقع الاليم انتفض كالاسد ديس عرينه في غابه او كالبدوي اغير عليه في حماه ، فهو لا يدفع عن نفسه فحسب ، وانما يرهق خصمه بالمجالدة والمعاردة ، حتى يجهز عليه ، ولا يخلي سبيله الا بعد ان ينزع منه حريته(١٣٠) .

وفي الامثلة التي نعرض لها في تفصيل كل جانب ما يكشف عن هذه الحال(١٣١) .

عود على بدء :

ولو اردنا ان نجمل القول في نقد الرافعي

(١٢٩) من رسالتها المؤرخة في ١٠ تشرين الاول ١٩٢٥م .

(*) من ذلك نرى ان الذين تالروا به في الادب وجوانبه ، لم يكونوا من تلامذته الادنين ، وانما كانوا من بعض اصدقائه ، كالاستاذ محمد صادق عنبر الذي اجتهد على ان ياتي بمثل ادبه في الحب ورسائله ، والاستاذ محمود محمد شاكر في تحريه العلمي ، وقوة عارضته مع مجادليه ، والاستاذ عادل الغضبان في صياغة المقالة البيانية .

اما الاستاذ محمد سعيد العريان فقد اخفق ان ينال قربا منه ، لمبلغ اهتمامه بالقصة التي كانت من اضعف فنون الادب آنذاك ، وربما هي التي لم تنله قربى المصاهرة ايضا .

واما محمود ابو رية فحسبه ما نال من الرافعي من رسائل تلقاها عنه ، ووجهة نظر في رواية الحديث النبوي طار بها في الافاق .

(١٣٠) ص . ش ــ البصير ، ــ ٦ ــ ١٩٣٧م .

(١٣١) قد ترد في مباحث خاصة ، نستانف الكثير من الاحكام!

وتقويمه للأدب واثاره ، فاننا نجده في ملاحظـاته ؛ ومواضع نقده لا يكتفي بالبحث عن فصاحة الكلمة وتذوق العصر لها(١٢٢) او الصياغة التي يتحـرى عربيتها البيانية في العبارة ـ بعيدا عن الاستعجام الذي رمانيه « التراجمة » او الفقرة التي تتسع لمعنى جزئي . .. وانما نجد المعنى الكلي الاثير يشغله ، والفكرة من حيث هي عطاء الاثر الادبي ، ضالته ؛ فهو يفتش عنها واضحة او غامضة ؛ وهل هي تبعث على التداعي الذهني او التوليد ، ام انها تموت بعد ذكرها ؟ ! كما يتحرى ما وراء الاكمة من اندساس وتضليل ومغالطة وارتقاب(١٢٣) .

ثم يتناول الصورة الاجمالية للاثر من حيث هو ادب او علم ؛ فكرة او خاطرة ، في مجاليه من الاداء والعطاء ، وما يتركه عند القارىء ، من حصيلة الفكر واللذة الوجدانية(١٢٤) .

من هذه النظرة التكاملية الشاملة التي تحفل بالنقد اسسا ومناهج ، واهدافا وافكارا ، وصورا واثارا ، مع الذوق والعصر ، والتوفر على اسبابه ودواعيه ، يجعل لمذهبه سمة الانفراد بين معاصريه وليس بصفة البيان وحدها ، التي قد تقتصر على بعض ما جاء في علوم البلاغة واساليب الكلام او فنون البديع ؛ او نظرات النقد المحدثة .

وما هو بالذي يرضخ لمناهج النقد «المترجمة» قدر ما يفيد من عطائها العلمي في التحليل والعطاء النفسي ، . وما كشفه لعيوب خصومه العلميـة والنفسية الا من اثر ذلك التحليل الوارد في نقده وتقويمه(١٢٥) .

ومما تقدم من شواهد واحوال يلوح لنـا الرافعي الناقد . وقد توثق النقد بالعلم الـذي يصحح ، والفن الذي يبدع ، واداره بحسب ما راى من اسلوب التنبيه والرد ودفع المغالطة ، . او السخرية والتهكم والايذاء ؛ محافظا على قيم النقد العربية من الموازنة وفقه اللغة والبيان ، واخذا بها الى آفاق جديدة من مذاهب النقد المحدثة في النفس والبيأة والموهبة ، بحيث لا تتخلف عنها بحال ؛ ان لم تفقها احيانا .

---

(١٢٢) لاحظ اعتراضه على ورود كلمة (قرع ظنبوب) في تقريظ ابيرية لكتابه في تاريخ القرآن ـ الرسائل ١٥٤

(١٢٣) راجع حديث اسماعيل مظهر ـ المقتطف ايلول / سبتمبر ١٩٣٧م و ص . ش . البصير ٢١ مايو / ايار ١٩٣٧م .

(١٢٤) انظر نقده لقصيدة العقاد (الخمرة الالهية) ـ على السفود ٥٢ .

(١٢٥) انظر مقدمة العقاد لكتاب (على السفود) وهي تدبته . وكذلك مقالة « مفتاح نفسه » ص ٨) .

دعـــــوة

« الى الادباء والمثقفين العـــرب »

ستصدر قريبا ، عن دار الجاحظ ـ وزارة الثقافة والاعـــــلام

« مجلة الثقافة الاجنبيـــة »

وهي مجلة فصلية تهتم باداب العالم ، وتسعى للتعريف بكل ما هـو جميل وتقدمي ، من الاداب الاجنبية ، وما يحفل منها بقيم الجمال ، والحـــق والانفتاح على الحياة ، ونشر ما من شأنه اغناء الحياة الادبية والثقافية في الوطن العربي وتنشيطها .

وستفسح المجلة حيزا واضحا لآداب العالم الثالث لما لهذه الاداب من خصوصية قومية ووطنية ولما فيها من تسجيل للحظات التحول في حياتها ،افرادا ومجتمعات كما ان المجلة تعمل على تقديـــم مشاهد حية للمناخات الادبية في العواصم الثقافية المهمة في العالم عن طريق مراسليها في الخارج .

ان المجلة تدعو المثقفين والادباء العـرب الى المساهمة معها مساهمة جادة ودائمة معبرين عن ذلك بما سيصل المجلة من ترجمات لما يجدونه مؤثرا وغنيا من اداب العالم . .